

الفصل الثانى

أصل الأمريكیین الإنجليز ، وأهميته لأحوالهم فى المستقبل

الإلام بنشأة الأمم وأصلها يعاون على فهم أحوالها الاجتماعية وفهم قوانينها - أمريكا البلد الوحيد الذى استطعنا أن نشاهد فيه بوضوح نقطة البداية التى بدأ منها شعب عظيم - وجوه الشبه بين المهاجرين إلى أمريكا البريطانية - وجوه الاختلاف بينهم - ملاحظة تصدق على جميع الأوربيين الذين استقروا على شواطئ الدنيا الجديدة - استعمار فرجينا - استعمار نيو إنجلند - السمات الأصلية لسكان نيو إنجلند الأول - وصولهم - قوانينهم الأولى - عقدهم الاجتماعى - قانون عقوبات مستعار من الشريعة الموسوية - حماسهم الدينية - روحهم الجمهورية - الاتحاد الوثيق بين روح الدين وروح الحرية .

يأتى الإنسان إلى الدنيا ويقضى السنوات الأولى من حياته دون أن يلحظه أحد ، يقضى هذه السنوات بين ملذات الطفولة وضروب نشاطها ، وبعد أن ينمو وينضج ، يستقبله العالم ، فيتصل بنى جنسه ، وعندئذ يصبح موضعاً للدرس والبحث لأول مرة ، ويخيل للناس أنهم يرون الرذائل والفضائل المعهودة فى السن الناضجة قد أخذت تتكون فيه . فهذه ، إن لم أكن مخطئاً ، غلطة كبرى . فيجب أن نبدأ قبل ذلك بكثير ، فنراقب الوليد وهو لا يزال فى أحضان أمه ، ونشاهد الصور الأولى التى تعكسها أحداث الدنيا الخارجية على مرآة عقله التى لم تصقل بعد ، ونفكر فى المثل الأولى التى تقع فى خبرته ، ونستمع الألفاظ التى توقظ فيه قوى التفكير النائمة . وأخيراً يجب أن نشهد بواكير جهوده التى ينبغى أن يذلها فى كفاحه . إن ذلك كله لابد منه ، إن أردنا أن نفهم منشأ الأمور التى يتعصب لها وينحاز ، ونعرف مصدر عاداته وشهواته التى ستوجهه فى حياته . فالرجل بأكمله يمكن أن يرى وهو لم يزل فى المهد صبيّاً .

ويمثل غو الأمم شيئاً يشبهه ، فكلها تحمل آثاراً وسمات من أصل نشأتها . فالأحوال التى صاحبت ميلادها ، وعاونت على تطورها وترقيها تؤثر فى اتجاه حياتها كله .

فلو أمكننا أن نرجع إلى العناصر الأولى التى تكونت منها الأمم ، ودرسنا أقدم ما فى تاريخها من آثار ، لاهتدينا لاشك إلى السبب الأول لما نراه فيها من ضروب التعصب والعادات والأهواء المسيطرة عليها ، ولوصلنا فى الجملة إلى أسباب كل ما يمكن أن نسميه بالأخلاق القومية . وسنجد هنا تفسيراً لبعض تلك العادات التى تبدو لنا الآن مخالفة للآداب العامة الغالبة ، وشرحها لتلك القوانين التى تتعارض فى ظاهرها مع المبادئ

المقررة، والآراء المتضاربة التي قد نصادفها في المجتمع أحياناً هنا وهناك . فما أشبهها بقطع السلاسل المكسورة التي نراها مدلاة أحياناً من قباب مبنى عتيق ولا تحمل شيئاً ما . وقد يفسر لنا هذا مصائر بعض الشعوب التي تبدو وكأن قوة مجهولة تدفعها نحو غايات لا تدري هي نفسها عنها شيئاً . ولكن الحقائق التي تقتضها هذه الدراسة مازالت تعوزنا إلى اليوم . فروح التحليل لا تتجلى في الأمم إلا عند اكتمال نضجها ، حتى إذا ما انتهى بها الأمر إلى التفكير في أمر نشأتها وأصلها ، كان الزمن قد ألقى عليها غشاء كثيفاً من الغموض ، أو احاطتها الكبرياء والجهل بأساطير تخفى وراءها الحقيقة .

فأمريكا هي البلد الوحيد الذي يتيسر لنا فيه أن نشاهد المجتمع ينمو غوراً هادئاً طبعياً ، ونميز في وضوح أثر النشأة والأصل في مقدرات الولايات ومستقبلها .

ففي الوقت الذي نزلت فيه شعوب أوربية شواطئ الدنيا الجديدة ، كانت خصائص هذه الشعوب القومية قد نضجت واكتملت ، فلكل شعب فيها ملامحه وسماته الخاصة به ، ولما كانت تلك الشعوب قد بلغت من قبل مرحلة الحضارة التي يتجه فيها الناس إلى دراسة أنفسهم ، فقد زودتنا بصورة أمينة عن آرائهم وآدابهم وقوانينهم حتى إننا لنكاد نعرف أهل القرن السادس عشر مثلما نعرف معاصرينا الذين بين ظهرانينا . فلا غرو أن كانت أمريكا تكشف لنا في رائعة النهار عن تلك الظواهر التي أخفاها عنا جهل العصور الأولى ، أو أخفتها وحشيتها . والظاهر أن أهل عصرنا يستطيعون أن يروا في الأحداث الإنسانية أبعد مما رآه أسلافهم فيها . فهم قرييون كل القرب من العصر الذي تأسست فيه المستعمرات الأمريكية ، وفي الوقت نفسه ، بعيدون كل البعد عن ذلك العصر ، مما يسر لهم أن يكون حكمهم على ما أنتجته تلك الدويلات حكماً سديداً ، فقد زودتنا العناية بمصباح لم يكن في متناول أجدادنا ، وخولت لنا أن نتعرف في تاريخ الأمم ومقدراتهم أسباباً أولى كانت قد أخفتها عنهم ظلمات الماضي .

فلو أنا درسنا بشيء من العناية والتعمق أحوال أمريكا الاجتماعية والسياسية ، بعد دراستنا تاريخها ، لاقتننا تمام الاقتناع بأنه لا يوجد رأى مدون ، ولا عادة من العادات ، ولا قانون من القوانين ، بل وأكاد أقول ولا حادث من الأحداث ، إلا ويفسره أصل الأمة . وسيجد قراء هذا الكتاب في الفصل الحاضر بذور كل ما سيلي ، ومفتاحاً للكتاب كله .

إن المهاجرين الذين وفدوا على أمريكا في فترات مختلفة كي يحتلوا الأراضي التي يشغلها الاتحاد الأمريكي الآن ، كانوا مختلفين بعضهم عن بعض من عدة وجوه ، فلم يكن غرضهم واحداً ، ولم يحكموا أنفسهم على أساس مبادئ واحدة .

ومع ذلك فقد كانوا يشتركون جميعاً في عدة نواح معينة ، فقد ألقت بهم الظروف في مواقف متشابهة . ولعل رابطة اللغة كانت أقوى الروابط التي يمكن أن تجمع بين

بنى الإنسان، وأدومها كلها. لقد كان المهاجرون الأول يتكلمون لغة واحدة، كما كانوا من أبناء شعب واحد. وإذا ولدوا في بلاد ظلت تحركها الخلافات الطائفية عدة قرون، واضطر كل فريق أن يضع نفسه بدوره في حماية القوانين، فقد اكتملت تربيتهم السياسية في تلك المدرسة الحشنة، فكانوا أدركوا بفكرة الحق، وبعبادى الحرية الصحيحة، من مغالية معاصريهم الأوربيين. ففي عصر الهجرات الأولى كان نظام «القومونات» (البلديات) أساس المؤسسات النافعة، قد تأصل ورسخ في عادات الإنجليز، ومعه دخل مذهب سيادة الشعب في صميم ملكية أسرة تيودور.

وكانت المنازعات الدينية التي استثارت العالم المسيحي في ذلك الوقت قد استشرت، فاندفعت إنجلترا وألقت بنفسها وسط النظام الجديد، بشدة وعنف، وصار أهلها، وكانوا دائماً ذوى أخلاق رزينة متعقلة، كثيرى الجدل، شديدي الصرامة، وازدادت المعلومات العامة من جراء الخصومات العقلية، ونال العقل مزيداً من الرعاية والعمق، فعلى حين كانت الديانة موضوع الجدل والنقاش، صارت آداب الناس وأخلاقهم أنقى وأصفى. فكل هذه السمات العقلية، تيسر استكشافها - إلى حد ما - في ملامح هؤلاء الإنجليز الذين جاءوا ينشدون دياراً جديدة على شواطئ المحيط الأطلسي المقابلة لشواطئهم.

وزيادة على ذلك فثم ملاحظة أخرى ستاح لنا الفرصة للعودة إليها، وهي ملاحظة لاتصدق على الإنجليز وحدهم، بل تصدق كذلك على الفرنسيين والإسبانيين وسائر الأوربيين الذين نجحوا في تثبيت أقدامهم في أراضي الدنيا الجديدة. فقد توافرت في كل هؤلاء الأوربيين العناصر اللازمة للديمقراطية الكاملة، وإن لم تتجل فيهم مظاهرها كاملة. وقد أدى إلى هذه النتيجة سببان اثنان. فلا بأس من أن نقول بأن المهاجرين عندما غادروا بلادهم الأصلية لم يكن لديهم أية فكرة عن تفوق أحد منهم على الآخر. فالسعداء الأقوياء لا يرحون بلادهم، وليس ثمة ضمان للمساواة بين الناس أؤكد من الفقر والبؤس. ومع ذلك فقد حدث مرات عدة أن اضطر نفر من ذوى المراتب والألقاب إلى الهجرة إلى أمريكا بسبب ما شجر في بلادهم من الخلافات السياسية والدينية، فوضعت القوانين نظاماً متدرجاً للمراتب، ولكن الناس لم يلبثوا أن رأوا أن تربة أمريكا تتعارض مع أية أرستقراطية إقليمية، وأدركوا أنهم كى يطهروا هذه الأرض لامناص لصاحبها من أن يذل جهوداً موصولة من أجل مصلحته الشخصية، وبعد أن تم إعداد الأرض، تبين أن غلتها لا تكفى لإدراج الثروة على الفلاح، وعلى مالك الأرض كليهما. وعندئذ قسمت الأراضي بطبيعة الحال أقساماً صغيرة يقوم مالك كل قسم منها بتعهد أرضه وزرعها بنفسه. فالأرض أساس كل أرستقراطية تستمسك بالأرض التي تغذيها، فليس بالامتيازات وحدها، ولا بالأصل والنسب وحدها، تقوم الأرستقراطية. ولكنها تقوم بملكية الأرض، يتوارثها الأبناء جيلاً بعد جيل. قد يكون في الأمة ثروات عراض وبؤس شديد، ولكن إن لم تكن هذه الثروات قائمة على الأراضي فلا يمكن أن تكون ثمة أرستقراطية، بل مجرد طبقة من الأغنياء، وأخرى من الفقراء.

كان بين جميع المستعمرات الإنجليزية إذن وجوه شبه بارزة منذ نشأتها . والظاهر أنه كان مقدراً على كل منها من البداية أن تشهد نمو الحرية في الطبقات الوسطى والدنيا التي لم يزودنا تاريخ العالم بمثل كامل منها . وليس نمو تلك الحرية الأرستقراطية التي نشأت في أوطانها الأصلية .

ومع ذلك فلا يسعنا إلا أن نلاحظ في هذه الوحدة العامة وجوه اختلاف عدة بارزة لا تقتضينا الضرورة أن نبينها . فثم فرعان أساسيان في الأسرة الأمريكية الإنجليزية الكبرى يمكن تمييزهما ، فهما نشأ ولم يندمجا إلى الآن بعضهما في بعض تمام الاندماج . فأحد هذين الفرعين في الجنوب والآخر في الشمال .

نزلت أول جالية إنجليزية في فرجينيا عندما وصل إليها المهاجرون سنة ١٦٠٧م . وكانت فكرة أن مناجم الذهب والفضة تعد مصادر الثروة القومية . منتشرة أيما انتشار في أوروبا في ذلك الوقت . وهي فكرة لاشك خاطئة . أدت إلى افتقار الدول الأوربية التي أخذت بها ، كما أدت إلى ضياع أرواح كثيرة في أمريكا أرى عددها على من راحوا ضحايا الحروب والقوانين الجائرة معاً . فالتاس الذين أرسلوا إلى فرجينيا كانوا أولئك النفر الذين يسعون وراء الذهب . وكانوا قوما مغامرين لأخلاق لهم . ولا موارد خاصة يعتمدون عليها ، وكانت نفوسهم القلقة المتمردة قد أضرت بالمستعمرة الناشئة وجعلت تقدمها أمراً غير أكيد . ولكن وصل إليها فيما بعد . جماعات من الصناع والزراع . ومع أنهم كانوا أحسن أخلاقاً وأكثر انتظاماً . فإنهم لا يرتفعون عن مستوى الطبقات الدنيا في إنجلترا في شيء . فلم تكد المستعمرة تنشأ حتى جرى إليها بالريق . فكان هذا الأمر الرئيسي الذي سيكون له أكبر الأثر في أخلاق أهالي الجنوب وقوانينهم . بل وفي مستقبلهم كله . فالرق ، كما سأبين بعد ، يسىء إلى سمعة العمل . ويدخل الكسل في المجتمع . ومع الكسل يدخل الجهل والصلف وحب الترف ، والبؤس . ذلك إلى إنه يضعف قوى العقل ويشل نشاط الإنسان . فإن نحن أضفنا تأثير الرق إلى الخلق الإنجليزي عرفنا أسباب ما في الولايات المتحدة الجنوبية من عادات أخلاقية وأحوال اجتماعية .

فعلى هذا الأساس الإنجليزي نفسه نشأت في الشمال صفات أخرى مخالفة لما في الجنوب كل المخالفة . وهنا يصح لنا أن ندخل في التفاصيل .

ففى المستعمرات الإنجليزية التي تقع في الشمال . والتي تعرف إجمالاً باسم نيو إنجلند . اجتمعت لأول مرة الفكرتان أو الثلاث الرئيسية التي أصبحت أساس نظرية الولايات المتحدة الاجتماعية ، ثم انتشرت مبادئ نيو إنجلند هذه أول ما انتشرت بين الولايات المجاورة لها . ومنها انتقلت إلى الولايات البعيدة عنها واحدة بعد أخرى . وأخيراً توغلت في الاتحاد الأمريكى كله . وإن نفوذها لينتشر فيما وراء الحدود حتى يعم العالم الأمريكى كله . لقد كانت حصاراً نيو إنجلند أشبه بمنارة أقيمت على روبة . فبعد أن أشاعت الدفء فيما حولها مباشرة جعلت تصبغ الأفق البعيد بوجهها .

كان تأسيس نيو إنجلند مشهداً جديداً، وكانت جميع الظروف التى أحاطت بها غريبة، وأصيلة غير مسبوقه . فكان أول من قطن المستعمرات كلها تقريباً، رجال من غير تعليم، ومن غير موارد خاصة، دفعهم فقرهم وسوء سلوكهم إلى النزوح عن البلاد التى نشأوا فيها، أو مضاربون جشعون، ومغامرون يغلب عليهم حب المكاسب، وكان بين هؤلاء المستعمرين من لا يفخرون حتى بأصل مثل هذا الأصل . « فسانتو دومنجو » أسسها القراصنة، ولا تزال محاكم الجنايات فى إنجلترا تزود أستراليا إلى اليوم بالسكان .

كان كل المهاجرين الذين استوطنوا شواطئ نيو إنجلند من الطبقات المستقلة اقتصادياً فى بلادهم . فاجتماعهم فى أرض أمريكا كان ظاهرة غريبة لاجتماع ليس فيه أعيان ولا سوقه، أو بعبارة أخرى، ليس فيهم غنى ولا فقر . وكان من هؤلاء القوم (بالنسبة لعدددهم) من المثقفين والمعلمين عدد أكبر مما نجد فى أية أمة أوربية فى عصرنا . وربما كانوا كلهم، من غير أى استثناء، قد حصلوا على قسط طيب من التعليم . وكان الكثيرون منهم معروفين فى أوروبا بمواهبهم العظيمة وسعة معارفهم . أما المستعمرات الأخرى فقد أنشأها مغامرون لا أسر معروفة لهم، على حين جاء المهاجرون إلى نيو إنجلند ومعهم الكثير من عناصر النظام والأخلاق، ونزلوا مع أزواجهم وأولادهم على الشاطئ المظفر . أما الذى ميزهم عن سواهم بصفة خاصة فالهدف الذى من أجله هاجروا . فليست الحاجة هى التى ألجأتهم إلى النزوح عن أوطانهم، فقد كانت مراكزهم الاجتماعية التى خلفوها وراءهم مما يندمون عليه ويتحسرون . وكانت وسائل العيش موفورة لهم، فهم لم يتركوا ما كانوا يعتمدون به من وسائل الراحة فى أوطانهم واجتازوا المحيط إلى الدنيا الجديدة، كى يحسنوا مراكزهم أو ينموا ثرواتهم، بل كان هدفهم إشباع رغبة عقلية محضة، فعندما واجهوا آلام النفى التى لا مناص لهم منها، كانوا يهدفون إلى تحقيق النصر لفكرة آمنوا بها .

كان هؤلاء المهاجرون، أو « الحجاج » كما يسمون أنفسهم بحق، من تلك الطائفة الإنجليزية التى أكسبتها كرامة مبادئها اسم المتطهرين (البيوريتانز) وليست التطهيرية مجرد مذهب دينى فحسب، فقد كانت تتفق فى كثير من الوجوه مع أكثر النظريات الجمهورية والديمقراطية المطلقة . فهذه النزعة هى التى استتارت أشد خصومهم خطراً عليهم، فلما اضطهدتهم حكومات بلادهم الأصلية، ونفروا كل النفور من عادات تابأها عليهم مبادئهم الصارمة الخاصة انطلق المتطهرون يبحثون فى العالم كله عن مكان خشن غير مأهول يستطيعون أن يحيا فيه حياة تتفق مع آرائهم، ويعبدوا ربهم بحرية تامة .

إن بضع عبارات نقتبسها من أقوال بعض المؤرخين قد تلقى الكثير من الضوء على روح هؤلاء المغامرين الأتقياء، وتعرفك بهم أكثر من كل ما نستطيع أن نقوله نحن عنهم .. إن ناثانيل مورتون (مؤرخ السنوات الأولى من استيطانهم نيو إنجلند) يستهل كلامه بالعبارة الآتية :

« أيها القارئ الكريم ! إنه لواجب مقدس علينا نحن الذين نال آباؤهم كثيراً من

نعم الله التي لا تنسى ومن رحمته بهم ، بإلهامه إياهم إنشاء هذه المزرعة ، في نيو إنجلند - أن نقوم بتخليد ذكراها . فما شاهدناه ، وما قصه علينا آباؤنا ، يجب أن ننقله إلى أبنائنا ونعرفهم به حتى نبين للأجيال القادمة أن الواجب عليهم أن يحمدا الله على ما آتاهم ، وحتى يذكر أبناء عبده إبراهيم وأبناء صفيه يعقوب أياديهِ البيضاء عليهم . فهم يجب أن يعلموا كيف أمر الله بنقل هذه الكروم إلى الصحراء ، وكيف غرسها وطرده الوثنيين منها ، وكيف أعد لها مغرساً ، وأرسل جذورها في أعماق التربة ، ثم تركها تمتد وتنتشر في أطراف الأرض .

فهذه الحقائق يجب أن نعرف حتى ينال الله من الحمد ما هو أهل له ، وحتى تصل بضع أشعة من أمجاده إلى أسماء أولئك القديسين الباركن الذين كانوا الوسطاء الأول في هذا المشروع السعيد .

يستحيل علينا أن نقرأ هذا الاستهلال من غير أن نشعر قسراً برهبة دينية ، وبجلال تفوح منه رائحة الإنجيل العتيق . لقد أضفى إيمان المؤلف بما يقول ، الحياة والقوة على أسلوبه . فهم لم يكونوا في نظر المؤلف ، ولا في نظرنا نحن ، مجرد قوم مغامرين هبوا يسعون وراء ما قدر لهم ، فيما وراء البحار . ولكنهم كانوا بذور أمة عظيمة حملتها العناية إلى الأرض الموعودة .

ويعصف الكاتب رحيل المهاجرين الأول بهذا الأسلوب فيقول :

« وهكذا غادروا مدينة « ليدن » الطيبة البهجة ، التي كانوا اتخذوها لهم مقراً موقوتاً منذ أحد عشر عاماً مضت . وكانوا عند رحيلهم مطمئني النفوس ، لأنهم كانوا يعلمون أنهم في هذه الدنيا غرباء ونزلاء ، وهي دنيا لم يحفلوا كثيراً بأمورها . بل كانوا يولون وجوههم شطر السماء ، أعز مكان عليهم ، حيث أعد الله لهم فيها مدينة خاصة .

وعندما وصلوا « دلفس هافن » وجدوا السفينة التي ستقلهم في انتظارهم وكان كل شيء معداً لهم . أما أصدقاؤهم الذين لم يستطيعوا الرحيل معهم فقد رحلوا بعدهم . وجاء كثيرون من أمستردام ليوذعوهم . فقصوا جميعاً ليلة لم ينم أكثرهم فيها إلا غراراً ، فقصوها في تسلية بريئة بين مظاهر الصداقة ، وفي أحاديث دينية وغيرها من التعبيرات الحقيقية عن المحبة المسيحية الصادقة . وفي الصباح صعدوا إلى السفينة ومعهم أصدقاؤهم . فكان الوداع مؤثراً حقاً ومؤلماً ، كنت تسمع تنهات ، وآهات عميقة . وترى الدموع تساب من عيونهم وتجري على وجناتهم ، وتستمع إلى الخطب الموجزة البليغة التي تصل إلى صميم قلوبهم ، وتشهد طول عناقهم وصلواتهم الحارة ، وكان كثيرون من الهولنديين واقفين على الرصيف يشاهدونهم فتأثروا أيما تأثر ، ولم يستطيعوا أن يمسكوا عليهم دموعهم - ولما أذن المؤذن بالرحيل ، ركع راعيهم الموقر ، وركعوا جميعاً معه مغرورق العيون ، فأسلمهم

الراعى بصلوات حارة إلى رحمة الرب ثم ودعوا بعضهم بعضا بعيون دامعة ، فكان لأكثرهم آخر وداع » .

كان عدد المهاجرين حوالى مائة وخمسين مهاجراً بمن فيهم من نساء وأطفال ، وكانوا يهدفون إلى إنشاء مستعمرة لهم على ضفاف نهر هدسن . وبعد أن ظل المحيط الأطلسى يتلاعب بهم فترة من الزمن ، اضطروا أن يرسوا بسفينتهم على شواطئ نيو إنجلند المقفرة عند النقطة التى تقع فيها الآن مدينة بلايموث ، ولا تزال الصخرة التى نزلوا عندها قائمة إلى اليوم .

ويستأنف المؤرخ الحديث فيقول « أرجو أن تلبث القارىء معى برهة تندبر فيها جدياً حالة هذا الشعب الفقير الحاضرة ، ونحمد الله الكريم على إنقاذهم . فبعد أن اجتازوا المحيط المترامى الأطراف ووصلوا إلى آخر المطاف ، وجدوا فى انتظارهم بحراً آخر من المتاعب ، فلم يكن ثم أصدقاء يرحبون بهم ، ولا فنادق تستقبلهم وتسرى عنهم أو تحدد نشاطهم ، ولا بيوتاً ولا مدناً يلوذون بها ويسألون المعونة من أهلها . وكان الفصل شتاء ، وكل من يعرفون شتاء تلك البلاد يعلمون أنه شتاء قاس وعنيف يتعرض لعواصف جارفة تلتف الشواطئ . فمن الخطر فى هذا الفصل أن يسافر المسافرون إلى الأماكن المعروفة لهم ، فما بالك بالبحث عن سواحل مجهولة ؟ وزيادة على ذلك فماذا عساهم أن يروا سوى صحراء مقفرة رهيبة ، مليئة بالوحوش الكواسر ، وبأناس متوحشين . أما عدد هؤلاء المتوحشين فأمر مجهولونه كل الجهل . فأنى وجهوا أنظارهم - اللهم إلا إذا وجهوها صعدا نحو السماء - لم يجدوا إلا القليل من الراحة ومن العزاء ، فبعد انقضاء الصيف ، ظهرت جميع الأشياء بمظهر أثر فيه الجو كل تأثير ، وبدت لهم البلاد كلها ، الحافلة بالغابات والأحراج ، فى صورة موحشة قاسية ، فإن هم تلفتوا وراءهم لم يشاهدوا غير المحيط الأعظم الذى اجتازوه والذى أضحى الآن يفصلهم عن سائر أنحاء المعمورة . فكى يجدوا قليلاً من الأمل شيئاً من الاطمئنان ، كان لابد لهم من أن يوجهوا أنظارهم شطر السماء » .

ولا يتصور أحد أن تقوى هؤلاء « المتطهرين » كانت مجرد تأمل ونظر ، أو أنها لم تحسب مجرى الأمور الدنيوية أى حساب . « فالتطهر » ، كما أشرنا من قبل ، يكاد يكون نظرية سياسية بقدر ما هو مذهب دينى ، فلم يكد المهاجرون يطأون بأقدامهم ذلك الساحل القفر الذى وصفه ناثانيل مورثون هذا ، حتى كان همهم الأول أن ينظموا أنفسهم على شكل مجتمع ، فاشتركوا جميعاً فى إصدار القرار الآتى :

« باسم الله ، آمين . نحن المذكورة أسماؤهم بعد ، رعايا مليكنا المرهوب الجانب ، المخلصين له ، الملك جيمس ... إلخ ...

إنا بعد أن قمنا لمجد الله ولنشر الدين المسيحى ، ولشرف مليكنا ووطننا - قمنا برحلة

لإقامة أول مستعمرة في الأجزاء الشمالية من فرجينيا . نعلن ، نحن الحاضرين ، في وقار أمام الله ، وأمام بعضنا بعضا ، أن نتعهد بأن نؤلف من أنفسنا هيئة سياسية ، مدنية ، تهدف إلى تنظيم شئوننا وصيانة أنفسنا ، ولتحقيق الأغراض السالف ذكرها - نتعهد جميعاً بفضل ذلك الميثاق أن نقوم الحين بعد الحين ، وبحسب ما تقتضيه الحاجة . بوضع القوانين والقرارات واللوائح والدساتير العادلة التي تسوى بين الناس ، والتي تراعى خير المستعمرة العام ، وأن نقيم بحسب الحاجة حكاما وقضاة نتعهد لهم بالإذعان والطاعة . إلخ .

حدث هذا في سنة ١٦٢٠ . ومنذ ذلك الوقت ظلت الهجرة تتوالى لا ينقطع تيارها . فالأهواء الدينية والسياسية التي مزقت أوصال الإمبراطورية البريطانية طوال حكم الملك تشارلس الأول كله ظلت تدفع جماهير جدداً من أهل الطائفة نفسها إلى شواطئ أمريكا في كل سنة من السنين . وقد ظلت الطبقات الوسطى - وهي الطبقات التي خرج منها معظم المهاجرين - معقل « المتطهرين » في إنجلترا . فلا غرو أن ازداد عدد سكان نيو إنجلند بسرعة عظيمة . وبينما كان نظام الطبقات يتحكم وحده في تصنيف سكان الوطن الإنجليزي ، كانت المستعمرة الأمريكية تزداد اقتراباً من ذلك المشهد الرائع الجديد - مشهد شعب متجانس في كل أجزائه . إن ديمقراطية أكمل مما تجرأت العصور القديمة أن تحلم به . قد نشأت كاملة العدد والعدة من بين مجتمع إقطاعي قديم .

هذا ولم تكن الحكومة الإنجليزية بأسفة على هجرة عدد كبير من أهل البلاد هؤلاء ، فقد خلصتها هجراتهم هذه من عناصر شقاق ونزاع . ومصادر ثورات جديدة ، بل على النقيض من أسفها . عملت كل ما يمكن أن تعمل لتشجيعها . ويبدو أنها لم تكن تحفل بشأن ما عسى أن يكون مصير أولئك الذين راحوا يسعون وراء ملجأ في أمريكا يلوذون به من قسوة قوانينها . وبدت الأحوال كأن نيو إنجلند كانت إقليمياً انعقدت أحلام الناس وأخيلتهم عليه ، ومجالاً لتجارب المحدثين الكثيرة التي لا تقف عند حد .

وكانت المستعمرات الإنجليزية - وهذا سبب من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى ازدهارها ورخائها - تستمتع دائماً بحرية داخلية ، وباستقلال سياسي أكثر مما كانت تستمتع به عادة مستعمرات الأمم الأخرى . ولم يكن مبدأ الحرية هذا يطبق في أى مكان آخر على نحو أوسع مما طبق في ولايات نيو إنجلند .

كان من المسلم به في ذلك الوقت اعتبار أقاليم الدنيا الجديدة من حق الأمة الأوروبية التي ثبت أنها أول من استكشفها . وبهذا صار شاطئ أمريكا الشمالية كله من أملاك بريطانيا في أواخر القرن السادس عشر . أو كاد . وكانت الوسائل التي تذرعت بها الحكومة البريطانية لإسكان هذه الأقاليم الجديدة شتى ومنوعة . فأحياناً كان الملك يعين لها حاكماً يختاره بنفسه ليتولى باسم التاج حكم جزء من تلك الدنيا الجديدة ، وبأوامر تصدر منه مباشرة . فهذا هو النظام الاستعماري نفسه الذي جرت عليه ممالك أوربية أخرى -

وأحياناً كان صاحب التاج يهب أراضي معينة إلى فرد أو شركة ، وعندئذ تكون السلطات المدنية والسياسية كلتاهما في يد شخص واحد ، أو جملة أشخاص ، يعمل (أو يعملون) بإشرافه ورقابته - وكان لهذا الشخص ، أو لأولئك نفر ، الحق في بيع الأراضي وحكم الأهالي . وأخيراً كان ثمة نظام ثالث ، وذلك أن يخول عدد من المهاجرين أن يكونوا من أنفسهم هيئة سياسية بحماية الدولة الأم ، وأن يقوموا هم بحكم أنفسهم حكماً لا يتنافى مع قوانينها . فطريقة الاستعمار هذه تتلاءم كل الملاءمة مع الحرية ، هي الطريقة التي اتبعت في نيوزيلند وحندها .

ففى سنة ١٦٢٨ منح الملك تشارلس الأول (مرسوماً) من هذا القبيل إلى مهاجرين غادروا وطنهم ليؤسسوا مستعمرة مساتشوستس ، ومع ذلك فلم يكن مثل هذا المرسوم يمنح لأية مستعمرة من مستعمرات نيوزيلند ، إلا بعد أن يصبح لها كيان خاص ويمضى على تأسيسها مدة غير قصيرة . فبلايموث ، وبرفیدنس ، ونيوهافن ، وكنيتكت ، ورود آيلند تأسست كلها بدون أى معاونة من الوطن الأصلى ، بل إنها تأسست من غير علمه تقريباً . ولم يستمد المستعمرون الجدد سلطتهم من رأس الإمبراطوية البريطانية ، وإن لم ينكروا ما لها من سيادة عليهم ، بل أقاموا من أنفسهم مجتمعاً سياسياً لم يعترف به رسمياً إلا بعد ثلاثين أو أربعين عاماً عندما أصدر الملك تشارلس الثانى مرسوماً ملكياً يجعل وجودها أمراً شرعياً .

ومن ثم كان من الصعب ، ونحن ندرس أقدم وثائق نيوزيلند ، التاريخية منها والتشريعية ، أن ندرك الصلة التي تربط المهاجرين ببلاد آبائهم . فقد كانوا يمارسون حقوق السيادة باستمرار ، ويعلنون الحرب ويعقدون الصلح ، ويستنون اللوائح البوليسية ، ويحترمون القوانين ، كما لو كان ولاؤهم لله وحده . فليس ثم شىء أعجب ولا أفيد من تشريعات تلك الفترة ، إذ نجد فيها حلاً للمشكلة الاجتماعية الكبرى التي تقدمها الولايات المتحدة الآن للعالم بأسره .

وسنجد بين مجموعات هذه القوانين ، تلك المجموعة التي سنتها ولاية كنيتكت الصغيرة سنة ١٦٥٠ والتي تمثل تلك القوانين خير تمثيل .

بدأ مشرعو ولاية كنيتكت بقوانين العقوبات ، ومن الغريب أنهم استمدوا موضوعاتهم من الكتب المقدسة .

جاء فى مقدمة هذه القوانين « كل من يعبد إلهاً غير الله سيعاقب بالإعدام . ثم تلا ذلك عشر فقرات أو اثنتا عشرة فقرة من هذا النوع أخذت نصاً عن أسفار التنية ، والخروج ، واللاوين ، وكان التجديف والسحر والزنا وهتك العرض آثاماً يعاقب عليها كلها بالإعدام ، وكل تعدّ من لابن على والديه جزاؤه الإعدام كذلك ، وهكذا طبق تشريع لا يصلح إلا لأمة خشنه نصف متحضرة ، على مجتمع مستنير وديع الأخلاق ،

فكانت النتيجة أنه لم يحدث أن تقررت عقوبة الإعدام في القوانين أكثر مما تقررت هنا ، ونفذت أقل مما نفذت هنا .

وكان أكبرهم واضع قانون العقوبات هذا ، المحافظة على حسن النظام في المجتمع ، وعلى سلامة الأخلاق فيه ، وعلى ذلك كانوا يقحمون أنفسهم باستمرار في ميدان « الضمير » فلا تكاد تجد خطيئة ليست موضوعاً لنقد أولى الأمر أو تعزيرهم . ويدرك القارئ صرامة هذه القوانين في خطايا هتك العرض والزنا . فكان الزنا بين غير المتزوجين يقمع بكل شدة ، وقد خول للقاضي أن يحكم بواحدة من ثلاث : فإما أن يوقع عليهم غرامة مالية ، أو يحكم عليهم بالجلد ، أو بالزواج . وإن نحن صدقنا سجلات محاكم نيوهافن القديمة ، فالأحكام التي من هذا القبيل كانت غير قليلة ، فثم حكم بتاريخ أول مايو سنة ١٦٦٠ يقضى بالغرامة والتعزير على فتاة اتهمت بالتلفظ بعبارات نابية وسمحت لشخص أن يقبلها . وفي قانون سنة ١٦٥٠ إجراءات وقائية كثيرة . فكان يقضى بتشديد العقاب على السكارى والكسالى . وحرم على أصحاب المنزل والحانات أن يقدموا لكل زبون أكثر من مقدار معين من الشراب . وحتى الكذبة البلقاء إن ترتب عليها ضرر حكم على الكاذبة بالغرامة أو بالجلد . وفي أخرى كان المشرع ينسى تمام النسيان مبادئ التسامح الديني العظيمة التي كان يطالب بها هو نفسه في أوروبا . ويجعل حضور الخدمة الدينية في الكنائس إجبارياً ، ويعاقب المخالفين بتوقيع الغرامات المالية . بل قد بلغ به الأمر أن يوقع عليهم عقوبات شديدة . وكثيراً ما كان يقضى بالإعدام على المسيحيين الذين يعبدون الله على نحو يخالف ما يعده هو عليه . والحق أن غير المشرع على التنظيم وتحمسه له كانا يدفعانه إلى الاهتمام بأمور جزئية تافهة لا يليق به أن يعنى بها . ومن ذلك إصدار قانون في مجموعة القوانين السالفة الذكر يحرم التدخين . وأخيراً يجب ألا يغرب عنا أن هذه القوانين المعجبة أو الظالمة لم تفرض على الناس فرضاً . بل تقررت بطريق التصويت ممن يعينهم الأمر ، كما يجب ألا ننسى أن العادات الأخلاقية كانت أشد صرامة من القوانين نفسها . فقد تكونت في بوسطن عام ١٦٤٦ جمعية تهدف إلى منع الناس من الاستمتاع بعادة إرسال شعورهم طويلة .

ولا شك في أن مثل هذه الأمور ليست مما يشرف العقل البشرى . بل هي دليل على قصور في طبيعتنا الإنسانية التي عجزت عن الاستمساك بما هو حق وعدل ، فهبطت بالقول إلى الأخذ بأحد أمرين كل منهما متطرف . ومما يتصل بقانون العقوبات هذا أوثق اتصال ، ذلك القانون الذي يحمل سمات بارزة تدل على روح طائفية ضيقة ، وعلى تلك الأهواء الدينية التي استأرتها وأججت الاضطهادات - والتي مازالت تحتمر بين الناس ، - نجد مجموعة من القوانين السياسية متصلة بشكل ما بتلك القوانين لاتزال متقدمة على ما يستمتع به عصرنا من حريات على الرغم من أن هذه القوانين وضعت منذ مائتين من السنين .

إن المبادئ العامة التي تعد أسس الدساتير الحديثة ، والتي لم تكن معروفة تمام المعرفة في أوروبا في القرن السابع عشر ، ولم تفرز كل الفوز حتى في بريطانيا نفسها ، كانت قوانين نيو إنجلاند تعترف بها وتقرها كلها . فتدخل الشعب في المسائل العامة ، وحرية التصويت على فرض الضرائب ، ومسئولية الموظفين ، والحرية الفردية ، والمحكمة بواسطة الخلفين ، كلها كانت مقررة فعلاً من غير حاجة إلى جدل أو نقاش .

وقد طبقت هذه المبادئ المثمرة ، وريقيت إلى درجة لم تحاوها أية أمة أخرى في القارة الأوروبية .

فكانت الهيئة الانتخابية في كنيكت تتكون منذ البداية من جميع المواطنين . وما فهم هذا بعسير . ففي هذه الجماعة الفتية كانت المساواة بين الناس وفي الثروة تكاد تكون كاملة ، كما كان بها وحدة أعظم في الرأي . وكان جميع الموظفين التنفيذيين في هذه الولاية آنئذ ، منتخبين بما فيهم كاهن الولاية نفسه . وإذا كان كل مواطن تزيد سنه على الستة عشر عاماً مجبراً على حمل السلاح فقد كونوا جيشاً قومياً (حرساً وطنياً) له أن يعين ضباطه بنفسه ، ويكون متأهباً دائماً للدفاع عن البلاد .

ففي قوانين كنيكت وفي ولايات نيو إنجلاند كلها نجد بذور استقلال وحدة الحكم المحلي وتطورها التدريجي ، وهي حياة الحرية الأمريكية في الوقت الحاضر ، والمعين الذي تستمد منه الحياة . بدأت معظم دول أوروبا وجودها السياسي في طبقات المجتمع العليا ثم صار يصل شيئاً فشيئاً ، وبشكل قاصر ، إلى مختلف أعضاء الهيئة العليا الاجتماعية . أما في أمريكا فكان الأمر على النقيض من ذلك . ويجوز لنا أن نقول أن وحدة الحكم المحلي نظمت في البلاد قبل المقاطعات ، والمقاطعات قبل الولايات ، والولايات قبل أن يقوم الاتحاد الأمريكي .

تم تكوين وحدة الحكم المحلي على وجه التحديد سنة ١٦٥٠ ، وكان استقلال وحدة الحكم المحلي البذرة التي تركزت حولها المصالح المحلية والعواطف والحقوق والواجبات ، وأتاحت المجال للنشاط في حياة سياسية حقيقية ، وديمقراطية جمهورية كاملة . كل ذلك وكانت المستعمرات لاتزال تعترف بسيادة الوطن الأم القديم عليها ، وكانت الملكية هي نظام الدولة ، ولكن الجمهورية كانت قد قامت فعلاً في كل مدينة .

وكانت القرية هي التي تعين كل موظفيها على اختلاف أنواعهم وتتولى فرض الضرائب اللازمة بنفسها وتجيئها بنفسها كذلك ، وإذا لم يكن قانون التمثيل النيابي قد عمل به في نيو إنجلاند ، إلا أن شئون الجماعة التي تمس جميع المواطنين كانت تدرس وتناقش في جمعية عامة تشمل المواطنين وتعقد في مكان عام .

فعند دراسة القوانين التي سنت وأذيعت في ذلك العصر المبكر من عصور الجمهوريات الأمريكية ، لايسع المرء إلا أن يدهش من سعة إلمام المشترع بشئون الحكم ،

ومن النظريات التقدمية التي يأخذ بها . فمن الواضح أن فكرته عن واجبات الجماعة نحو أفرادها ، كانت أرقى وأشمل من آراء المشترعين في أوروبا في ذلك الوقت ، فقد أُلقيت عليها التزامات كانت تستخف بها الجماعات الأخرى في كل مكان . ففي ولاية نيو إنجلاند كانت حالة الفقير موضع رعاية ، واتخذت إجراءات مشددة لصيانة الطرق ، وعين المساحون اللازمون للعناية بها وصيانتها ، وأعدت سجلات خاصة في كل بلدة لتدوين نتائج المناقشات العامة ، وتسجيل الموارث ، والوفيات والزيجات ، وتدريب الكتبة على العناية بهذه السجلات ، وعين الموظفون اللازمون لإدارة الممتلكات التي لم يعد يطالب بها أحد ، كما عين موظفون لتعيين حدود التركات . وكذلك غيرهم كثيرون للمحافظة على النظام العام في الجماعة . فالقانون يتدخل في آلاف التفاصيل المتنوعة ابتساراً لكثير من الحاجات الاجتماعية وسدها مقدماً ، وهي حاجات مازال الفرنسيون حتى اليوم لا يشعرون بها الشعور الكافي .

أما اللوائح المتصلة بشئون التعليم فهي التي أبرزت سمات الحضارة الأمريكية الأصلية خير إبراز ، فقد جاء في القانون « لما كان الشيطان عدو الإنسان ، يجد أقوى سلاح له في جهل الناس ، ولما كان من الأهمية بمكان ألا تظل حكومة آبائنا مدفونة معهم في قبورهم ، ولما كانت تربية الأطفال من أول واجبات الدولة - فإننا بعناية الله ... » ثم يلي ذلك فقرات خاصة بضرورة إنشاء المدارس في كل وحدة للحكم المحلي ، وإلزام الأهالي بمعاونتها ، وإلا فرضت عليهم غرامات مالية باهظة .. وكذلك تأسست بالطريقة عينها مدارس أعلى درجة في المراكز المزدهمة بالسكان . وكلفت السلطات البلدية بإلزام الأهالي بإرسال أبنائهم إليها ، وخول هذه السلطات أن تحكم بغرامات مالية على المخالفين . وإذا تكررت منهم المخالفات حق للمجتمع أن يحل محل الآباء فيستولي على الطفل ويحرم الأب تلك الحقوق الطبيعية التي لم يحسن استخدامها . وليس من شك في أن القارئ قد اطلع على تلك المقدمة التمهيدية التي استهل بها هذه القرارات . فالدين في أمريكا هو الطريق إلى المعرفة والعلم ، ومراعاة القوانين الإلهية تؤدي بالإنسان إلى الحرية المدنية .

فإن نحن ، بعد أن ألقينا نظرة عجل على حالة المجتمع الأمريكي في سنة ١٦٥٠ ، تحولنا إلى حالة أوروبا ، ولا سيما حالة « القارة » . في الفترة عينها . لأخذ منا العجب كل مأخذ . فقد كانت الملكية المطلقة في القارة الأوربية قد انتصرت في مفتح القرن السابع عشر في كل مكان على بقايا الحريات الأوليغارشية والإقطاعية التي كانت تسود العصور الوسطى . وربما كانت فكرة الحق قد أغفلت تمام الإغفال أكثر مما أغفلت وسط أبهة أوروبا وآدابها ، فلم يحدث قط أن قل النشاط السياسي بين الشعب ، ولم يحدث أن كانت المبادئ الحرية الصحيحة أقل تداولاً وانتشاراً . وفي هذا الوقت عينه الذي كانت فيه هذه المبادئ موضع احتقار أو جهل في أوروبا ، كانت تعلن في صحارى الدنيا الجديدة ، وكانت تقبل بوصفها العقيدة المستقبلية لأمة عظيمة . لقد حولت جماعة متواضعة أجراً

نظريات أخرجها العقل البشرى إلى شئون عملية ، حتى لم يعد ثمّ سياسى واحد يفكر أن ينزل إلى الاهتمام بها . وارتجل خيال الناس ، بما له من عقريّة طبعية ، نظاماً من نظم التشريع غير مسبوق . ففى وسط هذه الديمقراطية الغامضة التى لم تنتج بعد قواداً ولا فلاسفة ولا مؤلفين ، يستطيع الرجل أن يقف وحده تجاه أمة حرة ويعرف الحرية بالتعريف الآتى ، فيجد من السامعين رضى واستحساناً :

« أما من حيث الحرية ، فإنى أرى فى البلاد غلطة كبرى وقع فيها الناس . فهناك حرية مزدوجة : حرية طبيعية (وأقول طبيعية من حيث إن طبيعتنا نحن قد فسدت الآن) ، وحرية مدنية ، أو إن شئت ، قلت حرية فدرالية . فالحرية الطبيعية عامة يشترك فيها الإنسان والحيوان وسائر المخلوقات ، فالإنسان من حيث علاقته بأخيه الإنسان حر فى أن يفعل ما يشاء ، فهى حرية لعمل الشر ، مثلما هى لعمل الخير ، وهى حرية تتعارض مع السلطة ، ولا يمكن أن تتحمل أقل قيد تفرضه عليها أعدل سلطة ممكنة وأنزهاها ، فممارسة هذه الحرية والمحافظة عليها يجعلان الإنسان شراً مما كان ، ويصبح على مر الزمن أسوأ من البهائم ومن الوحوش . فهى عدو الحقيقة اللدود ، وعدو السلام ، بل هى الوحش الكاسر الذى تقف ضده كل أوامر الله داعية إلى كبحه وتقييده . أما النوع الثانى من الحرية ، فهو الذى أسميه حرية مدنية ، أو فدرالية ، ويصح أن نسميه حرية أخلاقية كذلك من حيث الميثاق المعقود بين الله والناس ، فى القانون الأخلاقى ، ومن حيث المواثيق الأخلاقية والدساتير المعقودة بين الناس أنفسهم وبعضهم وبعض . فهذه الحرية هى غرض السلطة الحقيقى وهدفها الأول ، ولا يتسنى لها أن تبقى بدونها ، وهى حرية لما هو صالح وخير وعدل وشريف ليس إلّا . هذه هى الحرية التى يصح لكم أن تناصروها وتحاطروا فى سبيلها ، لا بما تملكون من أموال فحسب ، بل بحياتكم أيضاً إن اقتضت الحال . وكل ما يتعدى على هذه الحرية ، ليس بسلطة ، فهذه الحرية لا تمارس ولا تصان إلا بنوع من الإذعان للسلطة . وهو نوع الحرية ذاته الذى جعلنا الله به أحراراً^(١) . »

ذكرنا ما فيه الكفاية الآن لإبراز سمة الحضارة الأمريكية ووضعها فى ضوءها الصحيح ، فهى ثمرة عنصر من أساسين متمايزين (وهذا ما يجب أن يكون نصب أعيننا باستمرار) كثيراً ما كانا فى البلاد الأخرى فى خلاف وصراع ، ولكن الأمريكين نجحوا فى إدماج أحدهما فى الآخر إلى حد ما إدماجاً رائعاً ، وهذان العنصران هما روح الدين وروح الحرية .

كان مستعمرو نيو إنجلند رجالاً طائفيين متحمسين ومجددين جريئين معاً . فهم من حيث بعض آرائهم الدينية ضيقو الأفق كل الضيق ، ولكنهم كانوا من حيث أنواع

(١) يعزى هذا التعريف الطويل إلى جون وينتروب (١٥٨٨ - ١٦٤٩) ، وهو إنجليزى من القائلين بمذهب المتطهرين ، هاجر إلى أمريكا سنة ١٦٣٠ وأصبح أول حاكم لولاية ماساتشوستس .

التعصب السياسية متحررين كل التحرر ، ومن ثم نشأت فيهم نزعتان متمايزتان وليستا متناقضتين ، فآثارهما مشاهدة في كل مكان من عادات البلاد وفي قوانينها .

كان الناس يضحون بأصدقائهم ، وبأسرهم ، وأوطانهم في سبيل رأى من آرائهم الدينية ، ولا ضير من أن نعدهم مخلصين لأهدافهم العقلية ، ومنهمكين في شئون تحقيقها ، وهى أهداف دفعوا في سبيل العمل بها ثمناً غالياً . ومع ذلك فهم يسعون وراء الحصول على الثروة والمادة والإشباع المعنوى بنفس الجهد وب نفس الحماسة . فهم يسعون لمرضاة الله لآخرتهم ويجرون وراء السعادة والحرية لدنياهم .

وكانت المبادئ السياسية والقوانين ، وسائر النظم البشرية تبدو في أيديهم مرنة لينة يشكلونها على النحو الذى يشاءون ، وكلما تقدموا تضاءلت الحواجز التى كانوا قد ولدوا تحتها ، وزال جزء منها ، واختفت الآراء القديمة التى ظل العالم محكوماً بها عدة قرون ، وتكشف لهم ميدان واسع سعة لا حد لها ، واندفعت الروح البشرية قدماً حتى اجتازت تلك الحواجز من كل جانب ، ولكنها توقفت عندما بلغت حدود العالم السياسى ، وتركت الحاجة إلى البحث والتنقيب خوفاً ورهباً ، بل إنها كفت حتى عن رفع الأغشية التى أخفت كل ما هو مقدس ، وانحنت في احترام أمام آراء قبلتها من غير تمحيص أو نقاش .

وهكذا نرى كل شيء في العالم الأدبى أو الأخلاقى ، مصنفأ ، منسقأ ، ومقررأ من قبل ، على حين أن كل شيء في العالم السياسى مضطرب وموضع نزاع ، وغير يقينى . ففى الدين طاعة سلبية ، وإن كانت اختيارية . أما الثانى ففيه استقلال يمزأ بالخبرة ويزدريها ، ويغار من كل سلطة . فيبدو أن هاتين النزعتين المتعارضتين في ظاهرهما أبعد من أن تكونا متضاربتين ، بل إنهما تسيران معاً وتؤيد كل منهما الأخرى .

فالدين يرى في الحرية المدنية تمرينأ كريماً للملكات الإنسان وقدراته ، ويرى في العالم السياسى مجالأ أعدده البارئ لجهود العقل . ولما كان الدين حراً وقويأ في دائرته الخاصة ، راضياً عن المكانة التى أعدت له ، فإنه لم ينشئ إمراطورية وطيدة الأسس إلا عندما يسيطر على قلوب الناس من غير حاجة به إلى أن يستند إلى شيء سوى قوته الذاتية .

وتعتبر الحرية الدين زميلاً لها في كل ما تقوم به من كفاح وما تحرزه من انتصار ، كما تعتبره مهد طفولتها والمصدر الإلهى لمطالبها ولحقوقها ، فهى تعد الدين ضمان العادات الأخلاقية . والأخلاق ، كما لا يخفى ، خير ضمان للقانون وأؤكد ما يكفل للحرية البقاء والدوام .

أسباب ما في قوانين الأمريكيين الإنجليز وعاداتهم من بعض الأمور الشاذة

لا تزال بقايا النظم الأرستقراطية قائمة وسط أكمل ديمقراطية عرفت - أسباب ذلك - يجب التفريق الدقيق بين ما أصله متطهر (بيوريتانى) وما أصله إنجليزى .

من الخير أن أحذر القارئ من أن يستنبط مما سبق أن ما ذكرناه نتائج عامة أو مطلقة أكثر مما ينبغي . فما من شك في أن حالة المهاجرين الأول الاجتماعى ودياناتهم وعاداتهم ، كان لها تأثير عظيم في مصائر بلادهم الجديدة . ومع ذلك فلم يكن في وسعهم أن ينشئوا حالة جديدة لأصل لها إلا في أنفسهم وحدها ، فليس في مقدور أحد أن يتخلص تماماً من سلطان الماضى . وقد خلط المستعمرون عمداً ، أو من غير قصد ، أفكارا مستمدة من تربيتهم ومن تقاليدهم في بلادهم الأصلية بالعادات والأفكار التى خلقوها هم خلقاً . فإن شئنا أن نعرف الأمريكيين الذين في وقتنا الحاضر يجب علينا أن نميز التميز الدقيق بين ما يرجع أصله إلى المتطهرين وبين ما هو إنجليزى الأصل .

فكثيراً ما يصادف المرء في الولايات المتحدة قوانين وعادات تتعارض مع كل ما يحيط بالبلاد . كأن هذه القوانين قد وضعت بروح لا تتفق مع روح التشريع الأمريكى السائدة . وليست هذه العادات بأقل تعارضاً مع الأحوال الاجتماعى العامة . فلو أن المستعمرات الإنجليزى تأسست في عصر من عصور الظلام . وكانت أصولها قد ضاعت على مر الزمان لكانت المسألة معضلة لا تحل .

وحسبى أن أقتبس مثلاً واحداً أوضح به ما قصدت ، فالإجراءات المدنية والجنائية التى يجرى عليها الأمريكيون لا تعرف سوى وسيلتين اثنتين : السجن أو الكفالة . فأول ما يعملها القاضى أن يطلب من المتهم دفع كفالة ، وإلا أمر باعتقاله إذا ما رفض الدفع ، ثم بعد ذلك يناقش أسباب اتهامه ، ومدى فداحة التهم الموجهة إليه .

ولا يخفى أن مثل هذا التشريع ليس في صالح الفقير في شيء ، بل كله في صالح الغنى ، فالفقير لا يجد دائماً الكفالة المطلوبة منه حتى في القضايا المدنية ، وإن اضطر إلى البقاء في السجن انتظاراً للعدالة ، فسرعان ما يستولى عليه الشقاء ويأخذ منه الانقباض كل مأخذ . أما الثرى فعلى النقيض من ذلك ، لأنه يستطيع أن يتخلص دائماً من السجن في القضايا المدنية ، بل الأمر أكثر من ذلك ، فإن ارتكب جريمة ماسهل عليه أن يتفادى العقاب الذى يناله ، فما عليه إلا أن يحتفى بعد أن يقدم الكفالة المطلوبة ، وبذلك يصح لنا أن نقول أن إجراءات القانون تتحول بالنسبة إليه إلى غرامات . فأى شيء أكثر أرستقراطية ياترى من هذا النظام التشريعى ؟ ومع ذلك فالفقراء في أمريكا هم الذين

يضعون القوانين ويحتفظون عادة بأهم ميزات المجتمع لأنفسهم . وتفسر هذه الظاهرة في إنجلترا . فالقوانين التي أحدثت عنها قوانين إنجليزية احتفظ بها الأمريكيون رغم تنافرها مع اتجاه تشريعهم العام ، ومع جملة آرائهم .

والشيء الذى لا تميل الأمة كثيرا إلى تغييره بعد عاداتها ، هو قوانينها المدنية . فليست هذه القوانين معهودة إلا للمحامين . وهم يحرصون كل الحرص على أن تبقى على ما هى عليه ، سيئة كانت أو صالحة . فهم وحدهم الذين يعرفونها . أما الشطر الأعظم من أفراد الأمة فيكادون يجهلونها . ولا هم يرون أثرها إلا فى القضايا الخاصة بهم . فلا غرو أن شق عليهم أن يدركوا اتجاهاتها ومراميها . لأنهم يطعمون القوانين من غير أن يولوها أى تفكير .

لقد اقتبسنا هنا مثلا واحدا . ومن الميسور أن نذكر كثيرا غيره . فعلى سطح صورة المجتمع الأمريكى غشاء من الديمقراطية يشف فى بعض الأحيان عما تحته من ألوان الأرستقراطية .